

سيمائية القول الشعري

السيموز وإنتاج الدلالة في قصيدة "في الواحة شبيء" لمحمد الصالح باوية

الطالبة: بريح فاطمة

جامعة سيدي بلعباس - الجزائر

ليس من شك في أن القصيدة العربية الحديثة تتنوع بها تحملها من محمولات دلالية غنية ومتعددة، منبثقة أساساً من الوعي الفكري العميق وتنوع أساليب العيش وأدوات الحضارة، وعلى تنوع وتشعب هذه الحمولة التي ما فتئت تجذب إليها القارئ/ الناقد جذباً، وتشده إلى عالمها شداً، فتزداد لذة القراءة بتعدد آلياتها واختلاف مشاربها .

ولعل من أبرزها القراءة السيميائية التي تجد لذتها وغايتها في ذلك الخضم الواسع من التنوع، وقد اعتبرها الكثير من النقاد أكثر القراءات اقتراباً في تحليل النصوص بقواعد واضحة، فهي تنظر إلى النص كعلامة تحاول التعرف على كنهها وعلتها وكيوتتها⁽¹⁾ فقد اعتبر مؤسسها شارل سندرس بيرس الانسان علامة وكل ما يحيط به علامة، كما يعتبر أن للعلامة حركة وسيرورة ودينامية، لها كياناً ثلاثياً تتفاعل داخله العناصر التركيبية والدلالية والتداولية وهذا ما يسميه بالسيموز SOMIOSIS .

إذن، تستند العملية كلها على فعل التأويل بإقامة السؤال حوا المعنى وكيفية تجلّيه، فيكون القارئ/ الناقد قطب الرحى في صياغة التمثلات والتأويلات واستنباط الدلالات حول النص كآته عالمه الخاص يترع في نسجه⁽²⁾، ونعلم أن كلّ لفظة حسناء بطبيعتها، بيد أن الاستعمال المتداول لها قد يفقدها بعضاً من ذلك الحسن أو كله، ولما توظف بطريقة ما وبأسلوب ما خاصة في الخطاب الشعري الحديث فتكسب ألقاً ورونقاً جديداً، لأنه ينطلق من قاعدة قول شبيء لأجل شيء آخر وهذا ما يجعله مستودعاً للدلالة والتأويل .

إنّ الغاية من هذا الموضوع محاولة الاقتراب من عالم شاعر ذي تجربة خاصة وهو الدكتور محمد الصالح باوية⁽³⁾ من خلال ديوان "أغنيات نضالية" ، إذ إنّه من الرواد المؤسسين لحركة الشعر الحرّ في الجزائر كتبت أغلب قصائده أثناء فترة الاستعمار الفرنسي عدا الثلاث الأخيرة منه كتبت بعد ذلك .

ومن أهم مميزات هذه التجربة اللّغة الشعرية النّابعة من الحياة اليوميّة الغنيّة بالصور الفنيّة والمعنى الإيحائي والتي لا تنزل إلى مستوى اللّغة العامية المسفّهة، فلغته تخلقها التجربة ذاتها ، وهي لغة تمنح أكثر مما تملكه أصواتها⁽⁴⁾ .

وقدملنا مجالسة الديوان إلى استلطاف قصيدته " في الواحة شبي" التي تحمل موضوعاً مختلفاً عن قصائده الأخرى التي تجسد إنشغاله الدائم ببيئته والإنسان الذي يعيش فيها ، تصف حالة الصراع الأبدي مع مصير حتمي هو الموت ، والقصيدة مهداة إلى صديقه الشهيد "البشير بن خليل" ، وفي جلّها تشبي بحالة اليأس والشعور بالأسى والحزن ووصف الحال بعد هذا الفقد . وقد جاءت في جزئين الأول منها في ثلاث مقاطع والثاني في مقطعين اثنين ، فيها تداعيات هذه الفجيرة ، وأما الثاني فثناء لحال الأم المنتظرة عودة أصبحت مستحيلة .

وبالعودة إلى استعراض تمثّلات ظاهرة السيمبوز في المتن ننطلق من الإفتاحية "يا ماسك" التي مثّلت مركز الدلالة وموجهة للمقطع كلّ وهو ما يتوضّح خلال قول الشاعر:

ياماسك الأسرار والموت ..

ويا قافلة الإلهام في الحيّ الجميل

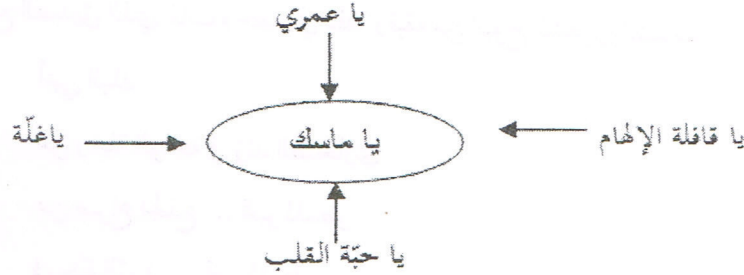
يا حبة القلب ... ويا عمري الطويل

يا غلّة ،

تنداح في الرمل ... وفي قحط الخليل⁽⁵⁾

يصبح الموت هنا علامة تحمل شخصانية لكائن غريب وخفيّ ،صاحب سلطة وتحكّم تخضع له ذات الشاعر الباكية التي لاحيلة لها خضوعاً شاكياًومناجياً في ذات الوقت عبر صيغ النداء: يا

ماسك / يا قافلة / يا حبة / يا غلة ، فتكون الافتتاحية مركزاً تموج حوله الصيغ كأفلاك تحركها دلالة السكون والتأمل المنجزة عن مناجاة باكية ويمكن التمثيل لها كما يلي:



ثم تحصل نقلة سحرية تماثل حالة التّمظهر التي تصنعها ذات الشاعر بغية الاستئناس، كردة فعل منطقية ترفض هذا الفقد ، يهياً له حضور هذا الصديق ، ويتحول الموقف إلى جلسة للتذكر باستنطاق الأماكن والأشياء والمواقف التي تتعطر بعبقه:

أنهي إليك

مالر تقل طير المسا ، يوماً ، لنا

أنهي إليك

ألف سلام ،

ألف موال ... وحرف ... وخبر

من قبضة الفأس المعنّى ..

تزرع الواحة مرجاً وقمر

من لوعة العود الذي يعرق في حقد الرمال

من صولجان النّخل في عزم الرّجال⁽⁶⁾

وجمالية النّقلة هنا ، عند انتقال الدلالة من الكلمة / العلامة "يا ماسك" إلى علامة أكبر في الجملة

"أنهي إليك" بعنصرها الفعل "أنهي" وفاعلها الضمير المستتر "أنا" أو المتكلم الشاعر ، وبها حقق

السيمبور وإنتاج الدلالة في قصيدة "في الواحة هوى" لعماد الطالع باوية
الشاعر ذلك التجسد من خلال الإخبار عن الحاضر بأشياءه: الموال ، الفأس ، الواحة ، المرج ، القمر ،
العود ، النخل .

وتظل الجملة / العلامة "أنهي إليك" حاملة لمعاني التذكر حتى أنه يتراءى لنا الشاعر في جلسة
مقههى مع الصديق الذي غاب وحضر في دفقة رقيقة من البوح الشعري الشفاف:

أنهي إليك

عن رحلة الواحة في زند الصحارى

عن صراع الجذع ... تجبو للمطر

في حبة الرمل ... تجبو للمطر

في حبة الرمل ... مخاضاً ...

يفتل العمر لليلي ... وعمر⁽⁷⁾

يبلغ الإلحاح في استحضار طيف الصديق أوجه عندما يتغنى له بأغنية تراثية شعبية غرضها سرد
قصة أسطورية ، مفادها أن عاشقين منعاً من الزواج ، فخرجا ذات ليلة خفية من قرية المغير ثم وجدا
جثتين هامدتين ومعهما نص الأغنية ، وفي ذات المكان نبتت نخلتان على قبرهما كانتا موجودتين الى
وقت قريب .

في بقايا نخلتين

أغنية ، ساهرة الرمح ،

من يوم اللقاح

يوم تغنى ، في سماء الواحة الخضراء

طير وصباح :

"وصادني

ما صاها

ما صاها ... مرض الهوى

مرض الهوى مال دواء

من حبّ الريمّ المغنّج " (8)

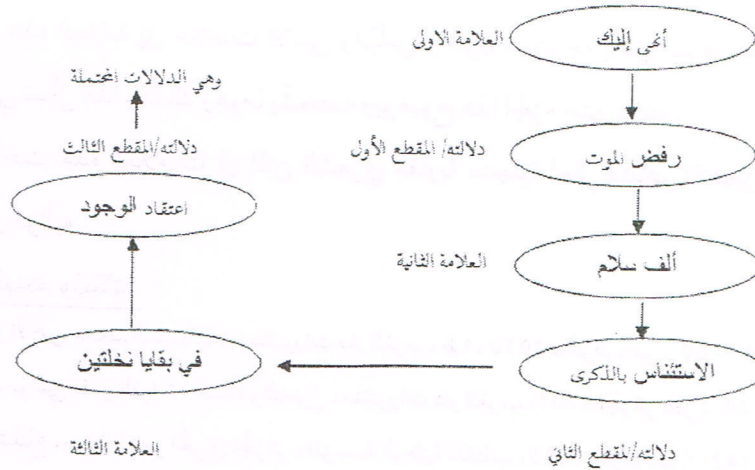
وعليه ، فقد ترسّخ لدينا أنّ السيموز حركية تنتج وفقها الدلالات وتتظافر بشكل علامة لانهاية الدلالة ، فالأولى تنتج دلالة ومنها تنشأ أخرى وهكذا دواليك وهذا ما صنعتها العلامة "أنهي إليك" ويمكن تحديد الدوال المنتجة المحتملة في عناصر ثلاث:

1. الإخبار عن الحاضر ويقابله الرفض .

2. التذكّر يقابله الإستئناس .

3. التّعني والسرد يقابله إعتقاد الوجود .

واستناداً عليه يمكن رسم هاته السيورة كما يلي:



وخلال هاته البكائية لا يغفل الشاعر حال شخص أقرب منه إلى العزيز المفقود ، وهي الأم التي تتلمس فلول العائدين عن فارس لا تصدق أنّه لا يعود، وبهذا تنتقل الحمولة الدلالية والتي تدعم موقف الشاعر الرفض إلى هذا الجزء تشي بالموقف المتأزم الذي آلت إليه كل من ذات الشاعر والأم في ذات الوقت ، تجسد ذلك الكلمتان / العلامتان " قلبي ، عيني " محرّكان دلالات الرثاء والإشفاق:

عيني ..

على تلك التي ، ترسو هنا

تشدو ... تشدو المبخره

تصمد للريح سنياً مبحره

لكن... تنادي:

يا ذُرئ

يا عائدين

يا عارفين

يا سحره

هذا زمان الحبّ ..

للفارس ، قولوا

إنّ وجدتم أثره⁽⁹⁾

تحيل هذه العلامة إلى علامات الأسمى واليأس والحزن الممزوجة بأمل السراب ، فتحيل إلى هيئة الأم التي تسأل هذا وهناك وهو ما يشخصه وبوضوح هذا الجزء حتى نهايته . وقد أتاحت هذه العلامات في المتن الشعري مقارنة متجلية لعالم الشاعر المنشغل دائماً بالانسان داخله وحواليه .

مراجع البحث وإحالاته:

1- فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، منشورات دار الغرب، ط1، 2010، الجزائر، ص: 60-61.

2- حبيب مونسى، فعل القراءة، النشأة والتحول، منشورات دار الغرب، 2001، الجزائر، ص: 20.

3- عبود شلتاغ، حركة الشعر الحر في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، الجزائر، ص: 142.

4- محمد الصالح باوية، أغنيات نضالية، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ص: 97.

5- المصدر نفسه، ص: 97.

6- نفسه، ص: 98.

7- ينظر: سعيد بنكراد، السيميائية مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار، سوريا، ط1، 2005، ص: 12، وينظر:

السيميائيات والتأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص: 129.

8- محمد الصالح باوية، أغنيات نضالية، ص: 100-101.

9- المصدر نفسه، ص: 102-103.